تـأمـلات فـي الإسـلوب ((النِـزاري))

يحدثنا الشاعر نزار قباني عن علاقته بالجمهور حديثا ممتعاً في حوار صحفي أجريته معه، ونشرته بالثمانينات في صحيفة (البعث) بما لفظه:

((... أكتب لكل الموءودات.. والمقموعات.. والمهروسات.. والمذبوحات من الوريد إلى الوريد.. ومن النهد للنهد.. ومن الضفيرة للضفيرة في مسلخ التاريخ. أكتب لأجعل الإنسان يستحق انسانيته.. والوطن يستحق اسمه.. والمرأة تستحق أمومتها.. والأطفال يستحقون طفولتهم.. والحياة تستحق نفسها. والشاعر الذي يخاطب الأمة العربية في هذه المرحلة الحارقة من تاريخنا (بالفوازير) و(الكلمات المتقاطعة) وبلغة سنسكريتية لا يمكن تفكيكها.. هو شاعر هارب من الجندية، ويستحق الحبس في زنزانة مظلمة)).

هذه هي طبيعة نزار قباني الفنية، وهذا هو إحساسه بجمهوره، وهو ما يدفعه دائماً إلى أن يكتب عن قضايا تهم الجميع وتثير الجميع. وإلى أن يكون تعبيره الفني، على جماله، ميسوراً للجميع، على حد تعبير الأديب الناقد رجاء النقاش:

بهروا الدنيا..

وما في يدهم إلاّ الحجارة...

وأضاؤوا كالقناديل، وجاؤوا كالبشارة

قاوموا.. وانفجروا.. واستشهدوا..

وبقينا دُباً قطبيةً

صُفّحت أجسادُها ضد الحرارة..

آه يا جيلَ الخياناتِ..

ويا جيلَ العمولاتِ..

obeikandl.com

ويا جيلَ النفايات..

ويا جيلَ الدعارة،،

سوف يجتاحك – مهما أبطأ التاريخ –

أطفالُ الحجارة..

هذا الأمر يجعل من شعر نزار قباني مباشراً، وهنا ينبغي أن نحذر من الوقوع في خطأ شائع، وهو أن كل شعر مباشر هو في نفس الوقت شعر سطحي، فليس الأمر بهذه البساطة مع شاعرنا الكبير، ذلك لأن ميله إلى التعبير المباشر بعيد تماماً عن السطحية، فهو في قصائده الطويلة، على وجه خاص، يبني عمارته الفنية على أسس صارمة، ويستخدم لغة تبدو سهلة يسيرة (السهل الممتنع) وما هي كذلك. وهو يقترب كثيراً من النثر، والاستخدام النثري للألفاظ، إلاّ أنه يعرف معرفة عميقة ذلك الخيط الحريري السحري الرفيع، على حد تعبير النقاش.، فلا يتعداه، وإن تعداه، فإنما يتعداه لصالح الشعر، ولذلك مهما اقتربت من النثر فإنها لا تفقد أبداً روح الشعر المتألقة. والاقتراب من النثر في شعر نزار هو إحدى مهاراته الكبيرة:

إذا سمعنا شاعراً..

يقرأ، في أمسية شعرية، أشعارَهُ

قُلنا له: (أحسنتَ يا مطربنا الكبير)..

إعقد على خَصرِكَ شالاً أحمراً..

وارقص لنا..

آخِرَ ما كتبْتَ.. يا شاعرنا الشهير.

ارقص لنا.. ارقص لنا..

فنحن قومٌ لا يرونَ الفرق

obeikandl.com

بين دِقَّة الخَصْرِ.. وبين دِقَّة التعبير..

إذا رأينا شاعراً

يفتحُ فوقَ منبر شريانهُ

مبشراً بوردة التغيير

قنا لهُ:

نريدُ أن تسمعنا (طقطوقة) جديدةً

تنقذنا من صحوة الضمير

كأنما وظيفةُ الشاعر

أن يُخدّرَ العقل،

وأن يعطل التفكير..

أو كقوله:

أعترفُ لك يا سيدتي

أنك كنتِ امرأةً استثنائيةْ

وأن غبائي كان استثنائياً...

فاسمحي لي أن أتلو أمامكِ فِعْل الندامة

عن كل مواقف الحكمة التي صدرت عني..

فقد تأكد لي..

بعدما خسرتُ السباقْ

وخسرتُ نقودي...

obeikandl.com

وخيولي...

أن الحكمة هي اسوأ طبق نقدّمهُ

لامرأة نُحبُّها...

يقول نزار قباني في مقابلة صحيفية أجريتها معه في الثمانينات:

" **أنه قرأ لبودلير، ورامبو، وفيرلين، وفاليري، ولم يحصل على الجنسية الفرنسية**".

غير أننا نستطيع القول، وباطمئنان شديد، أن نزاراً تأثر بعدد من الشعراء الفرنسيين على وجه التحديد، بخاصة وأن ثقافته في بداياته كانت فرنسية، من هؤلاء الشعراء نذكر: **بول إيلوار. جاك بريفير. بول جيرالدي. فاليري.**

وكم هاجرت بعض نصوص هؤلاء إلى ديوان شعره. لنقرأ معاً قصيدة (الحرية) لبول إيلوار، التي ترجمها للعربية الشاعر عبد الوهاب البياتي وزميله أحمد مرسي، ولا سيما المقطع الأول منها:

على دفاتري المدرسية

على منضدتي وعلى الأشجار

على الرمل، وعلى الجليد

أكتب اسمك

على الأيقونات المذهبة

على أسلحة المحاربين

على تيجان الملوك

اكتب اسمك

على الحقول، على الأفق

على أجنحة الطيور

obeikandl.com

وعلى طاحونة الظلال

اكتب اسمك.

يقول نزار قباني:

كتبت فوق الريح

اسم التي أحبها

كتبت فوق الماء

لم أدر أن الريح

لا تحسن الإصغاء

لم أدر أن الماء

لا يحفظ الأسماء!

وفي قصيدة نزار قباني التي حملت اسم (الجريدة) نلاحظ أن صور القصيدة ومفرداتها، مستمدة من قصيدة (إفطار الصباح) للشاعر جاك بريفير، وعودة للنص الفرنسي، أو للنص المترجم للعربية ضمن منشورات وزارة الثقافة السورية، يثبت صحة ما ذهبنا إليه ضمن ظاهرة هجرة النصوص من شاعر إلى آخر.

يقول نزار قباني:

أخرج، من معطفه الجريدة

وعلبة الثقاب

ودون أن يلاحظ اضطرابي..

ودونما اهتمام

تناول السُكَّرَ منَ أمامي...

obeikandl.com

ذوّبَ في الفنجان قطعتينْ

ذوَّبني.. ذوّب قطعتينْ

وبعد لحظتينْ

ودون أن يراني

ويعرفَ الشوق الذي اعتراني..

تناول المعطف من أمامي

وغاب في الزحام

مخلّفاً وراءه.. الجريدةْ

وحيدةً

مثلي أنا.. وحيدةْ..

يقول جاك بريفير:

صبَّ القهوة

في الفنجان

صبَّ الحليبَ

في فنجان القهوة

وضع السكّر

في القهوة بالحليب

حرَّك بالمعلقة الصغيرة

شربَ القهوة بالحليب

obeikandl.com

وحطَّ الفنجانَ

دون أن يكلمني

أشعل سيكارة

عملَ دوائرَ

بالدخان

نفضَ الرمادَ

في المنفضة

دون أن يكلّمني

دون أن ينظر إليَّ

وضع قبعته على رأسه

ارتدى معطف الشتاء

لأن المطر كان يهطل

وذهبَ تحتَ المطر

دون كلام

دون أن ينظر إليَّ

وأنا أمسكتُ

رأسي بيدي

وبكيت[1]

(١) كلمات، جاك بريفير، ترجمة وتعليق أ. صياح الجهيم، ص ٢٢-٢٣، منشورات وزارة الثقافة السورية ١٩٩٥

obeikandl.com

ويلاحظ الناقد محي الدين صبحي في كتابه النقدي (نزار قباني: شاعراً وانساناً) تأثر نزار قباني في ديوانه (أنتِ لي) تأثراً واضحا بديوان (أنتِ وأنا) للشاعر الفرنسي بول جير الدي، إلى درجة فقد معها كثيراً من عفويته نتيجة لتتبعه خطى غيره، حتى أننا نشعر أن الشاعر احترف نظم الشعر، وتكلف في بعض الديوان، نذكر على سبيل المثال لا الحصر مقطعاً من قصيدته التي حملت اسم (كيف كان):

عن حبّنا... كيف كان؟

وكيف نحن استحلنا

حرائقا.. في ثوان

صرنا ضياءً.. وصرنا

في دوزَنات الكمان

فالناس لو أبصرونا

قالوا: دخانٌ الدخان

هل الزمان رآنا

أم نحن أصل الزمانُ

في أي أرض جُمعنا

وأين هذا المكان

هل كان جذعا عتيقا

في غابة السنديان

أم كان منزلَ راع

مسربلا بالأغانْ

obeikandl.com

ظاهرة أخرى في شعر نزار قباني، وهي دعوته الملحة إلى تحرير المرأة العربية. فما هي نظريته لتحرير المرأة لتأخذ مكانها الطبيعي في المجتمع؟ من المؤسف أنه لم يضع أية نظرية. فهو يرى تحرير المرأة يكمن في ممارسة حياتها الخاصة بكل حرية. الحرية التي يطلبها للمرأة حرية الحب.. وحرية الجنس. إنه بدعوته هذه لتحرير المرأة يكرس النظرة السلفية عن المرأة و يميع قضيتها بل ويقيدها بقيد جديد. ومما يسترعي الانتباه أن شاعرنا حين كتب عن المناضلة الجزائرية جميلة بوحيرد وصف تقاطيع جسدها:

أضواءُ (الباستيل) ضئيلة
وسعالُ امرأةٍ مسلوله
أكلت من رئتيها الأغلالْ
أكلَ الأنذال..
(لاكوست)، وآلاف الأنذال
من جيش فرنسا المغلوبة
انتصروا الآن على أنثى..
أنثى كالشمعة مصلوبة
القيد يعضُّ على القدمين
وسجائر تطفأ في النهدين
ودمٌ في الأنف...
وفي الشفتين...
وجراحُ جميلةَ بوحَيْرِدْ
هي والتحرير.. على موعدْ..

obeikandl.com

مقصلةٌ تُنْصبُ.. والأشرار

يلهون بأنثى دون إزار

وجميلةَ، بين بناَدقهم

عصفورٌ في وسط الأمطار..

الجسدُ الخمريّ الأسمر

تنفضُه لمساتُ التيار

وحروقٌ في الثدي الأيسرْ

في الحلمةِ..

في..في.. يا للعارْ..

وظاهرة متكررة في شعر نزار، تستحق التأمل، أنه استعار لسان المرأة، فتحدث عن مشاعرها وأحاسيسها، ورغباتها الدفينة، وأهدافها السرية والعلنية:

لا تدخُلي..

وسددتَ في وجهي الطريقَ بمرفقيكْ

وزعمتَ لي..

أنّ الرفاقَ أتوْا إليك؟

أهُمُ الرفاق أتوْا إليك؟

أم أنَّ سيدةّ لديك

تحتلُّ بعدي، ساعديك؟

obeikandl.com

وصرخت محتدما:

قفي!

والريح تمضغ معطفي

والذلّ يكسو موقفي

لا تعتذر، يا نَذْلُ، لا تتأسّفِ.

أنا لستُ آسفةً عليك..

لكنْ على قلبي الوفي

قلبي الذي لم تعرفِ..

ماذا؟ لو أنكَ يا دَنَي

أخبرتني..

أنّي انتهى أمري لديكْ

لا تعتذر..

فالإثمُ يحصدُ حاجبيكْ

وخطوطُ أحمرها... تصيح بوجنتيك

ورباطُكَ المشدوهُ..

يفضحُ ما لديكَ.. ومَنْ لديكْ

إن نزاراً يحاول أن يصرف ملاحظاتنا عنه، لينفرد بنفسه، لينفرد بكل صغيرة يتأملها، وما أكثر الشؤون الصغيرة التي استطاع نزار أن يحيلها إلى وسط تأملي:

obeikandl.com

حُلوتي! بالرغم مما قلتُه

فأنا – بعدُ – على حبي القديمِ

داعبي كلّ مساء رقمي

واصدحي مثل عصافير الكرومِ

كلمةٌ منك.. ولو كاذبةٌ

عمرَّت لي منزلاً فوق النجوم

فالشؤون الصغيرة هي دوماً ذلك الوسط التأملي الذي يلوذ به نزار ليتأمل نفسه من خلاله، ومن خلال هذا الصوت الآخر الذي يبدو لنا أنثوياً في كثير من الأحيان. وفي هذا الصدد يقول نزار قباني:

((**في العمل الإبداعي، لا أسمح لأي سلطة أن تجلس على أصابعي وتملي عليّ ماذا أكتب.. وكيف أكتب.. فالقصيدة التي لا تستطيع أن تتجول في كل الاتجاهات هي فأرة في مصيدة.. والحرية التي أطلبها للمرأة هي حرية ممارسة خياراتها وإنسانيتها وتركها في مواجهة مسؤولياتها.. والذين يقولون إن حرية المرأة فيها خطورة.. أقول لهم إن حرية الرجل، في سلوكه وممارساته عبر التاريخ كانت أشد خطورة**)).

لقد نجح نزار قباني وبمهارة أن يؤسس (بلاغته المعاصرة) التي تختلف عن (البلاغة القديمة) التي تهلل للطباق والجناس، والاستعارة المكنية، فإذا كانت (هذه البلاغة القديمة) تقوم على الفصاحة وغريب القول القاموسي، فإن تلك (البلاغة المعاصرة) تعتمد على تحديث اللغة وطفولية العبارة، وبساطتها، وعمق التجربة وتجذرها في أعماق الوجدان.

obeikandi.com

محطات في حياة الشاعر نزار قباني

- ولد في دمشق في ٢١ آذار (مارس) سنة /١٩٢٣م/.

- درس في دمشق وتخرج في كلية الحقوق بالجامعة السورية سنة /١٩٤٤م/.

- التحق بعد تخرجه من الجامعة بوزارة الخارجية السورية، وشغل عدداً من المناصب الدبلوماسية في القاهرة، وأنقرة، ولندن، ومدريد، وبكين.

- استقال من العمل الدبلوماسي في ربيع سنة /١٩٦٦م/، وأسس داراً للنشر في بيروت حملت اسمه، متفرداً بذلك لقدره الوحيد: الشعر.

- ركز في بداياته على شعر الحب. وحاول أن يخرج علاقات الحب في المجتمع العربي من مغائر القهر والكبت، إلى ضوء الشمس ومنحها العلنية والشرعية. ابتكر لنفسه لغة خاصة به، تقترب من لغة الحوار اليومي، واتجه بشعره إلى جميع طبقات الشعب العربي، كاسراً بذلك طبقية الثقافة، والاحتكارات الإقطاعية والبرجوازية للشعر، بحيث أصبح الشعر على يده، خبزاً يومياً..

- أكثر الشعراء العرب شعبية وشهرة وانتشارا. وأكثر الشعراء العرب تأثيراً في وجدان مواطنيه.

- كتب الشعر وهو في السادسة عشرة (١٩٣٩م). ومنذ ذلك التاريخ وهو يقاتل حتى يصبح البحر أكثر زرقة وقامة الإنسان أكثر ارتفاعاً.

- انتقل شعره بعد حرب /١٩٦٧/ نقلة نوعية، من شعر الحب إلى شعر السياسة، واستطاع منذ ذلك التاريخ أن يمسك الوردة والمسدس بيد واحدة، ويرسم بصدق وإخلاص كل الحرائق، والزلازل، والأعاصير التي عصفت بالوطن العربي.

- رحل عن عالمنا بتاريخ ٣٠ نيسان سنة /١٩٩٨م/ ودفن بدمشق التي أحبها وأحبته.

obeikandi.com